مملكة الحيرة فى أيامها الاخيرة*

بقلم الاستاذ يوسف بك غنيمة
وزير مالية العراق الأسبق

٤ : ازاذبة

٦١٧ — ٦٢٨م

عقب إياس على ولاية الحيرة رجل فارسى سماه حمزة الأصفهانى [١] زاديه بن ماهبيان ابن مهر بنداد الهمذانى، وجعل مدة ولايته ١٧ سنة، وقال ابن الأثير : اسمه أزادبة بن مابيان الهمذانى [٢] ، وسماه بعض الكتبة روزبى بن مرزوق [٣] ، ولم تقف على أعماله والأحداث التى تمت فى أيامه . والظاهر أن كسرى أبرويز جنح — بعد قتل النعمان أبى قابوس وانكسار جيشه فى واقعة ذى قار — إلى سياسة فارسية بحتة فى «الحيرة»، وذلك بتعيين عمال من الفرس عليها ، وهكذا قضى على سلطان المناذرة .

وفى أيام هذا المرزبان خلع كسرى أبرويز وقتله مهر هرمز بن مردنشاه فادوسبان نيمروذ، على ما وراه الطبرى [٤] ، وجلس على عرش الأكاسرة شيرويه بن أبرويز ، وجاء فى بعض الروايات عن سبب خلع كسرى أبرويز وقتله ما يأتى :

اضطهد هذا الملك النصارى وقتل فى إبان الاضطهاد أنسطاس الشهيد ويزدين صرافه ، (أى صراف الملك) ، وكان نصرانياً واستولى على أمواله ، فاتفق ابنا يزدين وهما : شمطا ومهر هرمز (ويسمى هذا الأخير قرطاق أيضاً) مع فريق من أشراف الدولة ورفعوا لواء العصيان على كسرى أبرويز ونادوا بخلعه وتنصيب ابنه شيرويه ، واستأذن ابنا يزدين شيرويه فى قتل أبيه فأذن لهما وقتله مهر هرمز [٥] ، ثم تماديا فى عملهما وقتلا أولاد كسرى كلهم

---

* راجع « المعرفة » عدد ديسمبر ١٩٣٢ .

(١) كتاب تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ص ٧٤ (٢) الكامل ١ : ٢٠٠ (٣) شير : كلدو وانور ٢ : ٢٤٣ (٤) الطبرى ٢ : ١٥٩ — ١٦٦ (٥) ضبط بعضهم اسمه نيهورمزد ، ويظهر من رواية الطبرى ٢ : ١٦٦ أن مهر هرمز هو ابن مردانشاه فادوسبان نيمروذ ، ويؤيد هذا القول ما جاء فى تاريخ كلدو وأثور لأدى شير ٢ : ١٤٢ أن نيهورمزد اتفق وشمطا لأن كسرى أبرويز كان قد قتل أباه أيضاً، أما (لابور) فى كتابه الفرنسى « تاريخ النصرانية فى فارس» ص ٢٣٥ ، فانه يوحد قرطا أو قرطاق ونيهورمزد .

يعاونهما فى أمرها عظماء الدولة ، ويقال إنهما أمعنا فى غوائلهما وحاولا الاستيلاء على الملك وإقامة سلالة مالكة من أسرتهما ، وأتت الأحوال موالية لهذه الخطط ، إذ كان جيش الروم فى تلك الأرجاء ، وكان الامبراطور هرقل يسر أن يرى على عرش الأكاسرة ملكاً نصرانياً يخضع له ويطلب حمايته (١) .

حذر شيرويه الموقف فقبض على شمطا ، إلا أن شمطا تمكن من الفرار والتجأ إلى الحيرة فلم يجده هذا الالتجاء نفعاً ، لأن الحيرة العربية كانت قد فقدت شبه استقلالها ، فلم تكن بعد ملجأ لأعداء ملك الملوك ، فقبض شيرويه على خصمه وقطع يديه وسجنه (٢) .

وذكر الدينورى(٣) رواية غير هذه الرواية فى سبب خلع كسرى أبروز لا محل لذكرها هنا ، وفى كتاب أرسله إليه ابنه شيرويه بين له فيه سوء إدارته وأعماله التى أدت إلى خلعه ، ومما قال فيه لائماً أباه « ومنها قتلك النعمان بن المنذر وصرفك ملك أرضه عن ولده وأهل بيته إلى غيرهم ، يعنى إياس بن قبيصة الطائى ، فلم تحفظ فيهم ما كان يحفظه آباؤك من حضانته بهرام جور جدك ومعونته بعد أن خرج الملك عنه حتى رده عليه ؛ فكل هذه ذنوب ارتكبتها وآثام اقترفتها ، لم يكن الله ليرضى منك ؛ فآخذك بها » (٤) .

٥ : المنذر الخامس ابن النعمان أبى قابوس
وهو المنذر المغرور
٦٢٨ — ٦٣٢

ذكر بعض المؤرخين ملك المنذر المغرور ابن النعمان أبى قابوس على الحيرة بعد أن انقطع الملك عن بيته ، وتولاه غير واحد من السلاطين عرب وفرس ، ولكننا نجهل الوسائل التى مهدت له السبل لاعادة سلطان آبائه وأجداده ، وإن قلنا شيئاً فما ذلك إلا من طريق الحدس والاستنتاج ؛ فنظن أن دولة الأكاسرة ضعفت فى هذه المطاوى بعد قتل كسرى أبروز (٦٢٨م) واستظهار الروم على الفرس فى عهد القيصر هرقل ، وجاءت الفتن الداخلية والثورات القومية ضغثاً على إبالة ، ففتت فى عضد الفرس ، وهدمت أركان سيطرتهم ، حتى قام على عرش الأكاسرة فى غضون أربع سنوات عدد من ملوك وملكات منهم : شيرويه بن أبروز ، وشيرزاد ابن شيرويه ، وشهريان ، وجوان شير ، وبوران (٥) ، ولم يستقم الأمر لأحد منهم ، بل

(١) لابور : النصرانية فى بلاد فارس ص ٢٣٦ (٢) الطبرى ٢ : ١٥٩ — ١٦٦ ، ولابور : ٢٣٢ — ٢٣٦ ، وادى شير ٢ : ٢٤١ — ٢٤٣ ؛ Un Nuovo Testo Sulla Storia Degli Ulteini S'assanidi Edit, Guidi 1891 (٣) الأخبار الطوال : ١٠٦ — ١١١ (٤) كذلك ص ١٠٧ (٥) الأخبار الطوال : ١٠٦ — ١١٠ .

خلعوا أو قتلوا؛فهذا الاضطراب فى دولة الأكاسرة ربما هو الذى سهل السبل للمنذر المغرور أن يستعيد ملك الحيرة،ولكن لم يطل الأمد عليه حتى جاءت جحافل الفاتحين المسلمين بقيادة خالد بن الوليد فى خلافة أبى بكر الصديق فى سنة (١٢ هـ ٦٣٢ م) وفتحوا الحيرة. اما المنذر فذهب إلى البحرين وأسلم، وكان يقال له قبل إسلامه الغرور، وسمى نفسه بعد إسلامه المغرور (١) ؛ وفى رواية (٢) أن ربيعة ملكوه عليهم فى البحرين لما ارتدوا وقتل فى واقعة جواثا (٣) ، وذكر الطبرى أن الحطم بن ضبيعة أخا بنى قيس بن ثعلبة ارتد فى البحرين ، وأرسل إلى غير واحد واسمه الغرور ابن سويد أخى النعمان بن المنذر ، فبعثه إلى جواثا ، وقال : اثبت فإنى إن ظفرت ملكتك بالبحرين حتى تكون كالنعمان بالحيرة (٤) .

٦ : فتح الحيرة

اشتهرت الحيرة بين العرب بجمالها الفتان ، وزخرفها الجذاب ، وموقعها النزه ، وقصورها العامرة ، وسارت الركبان بذكرها لوجودها فى آخر ريف العراق قريبة من البادية على طريق القوافل ومسير القبائل ، وللصلات القومية بين سكانها وسكان جزيرة العرب ، ولهذا نرى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذكرها غير مرة فى حديثه على ما رواه المؤرخون ، ومن ذلك ابتهاجه بنصرة العرب على العجم فى واقعة ذى قار ، كما مر بنا ، وفى كلامه مع عدى ابن حاتم ، قال عدى : دخلت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقال لى: يا عدى بن حاتم ! « اسلم تسلم » ثلاثاً ـ فقلت : إنى على دين ، قال : إنى أعلم بدينك منك ، فقلت : أنت أعلم بدينى منى ، قال نعم،ألست من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك ، قلت بلى ، قال فإن هذا لا يحل لك فى دينك ، وقال حاتم : فلم يعد أن قالها فتواضعت لها ، فقال : أما إنى فأعلم ما الذى يمنعك من الاسلام،تقول إنما أتباعه ضعفة الناس ومن لا قوة له ، وقد رمتهم العرب ؛ أتعرف الحيرة ؟ قلت : لم أرها وقد سمعت بها ، قال : فوالذى نفسى بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحد وليفتحن كنوز كسرى بن هرمز (قال) قلت : كسرى بن هرمز؟قال : نعم كسرى بن هرمز،وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد ، قال عدى بن حاتم : فهذه الظعينة تخرج من الحيرة وتطوف بالبيت من جوار ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة ، لأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد قالها (٥) .

---

(١) ابن الأثير ٢ : ١٥٤ (٢) الطبرى ٣ : ٢٥٥ (٣) كذلك ٢:١٥٧ (٤) الطبرى٤ : ١٥
(٥) مسند عدى بن حاتم من كتاب سند الامام أحمد بن حنبل،ومجلة المشرق ١٩٠٥:ص٥٠٧

وذكرت الحيرة أمام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ غير هذه المرة . حكى ابن الكلبي أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما افتتح مكة قدمت عليه وفود العرب ، فكان فيمن قدم عليه قيس بن عاصم وعمرو بن الأهتم بن عمه ، فلما صارا عند النبي تسابا وتهاترا ، فقال قيس بن الأهتم : والله يا رسول الله ما هم منا وإنهم لمن أهل الحيرة ، فقال عمرو بن الأهتم : بل هو والله يا رسول الله من الروم ، وليس منا ؛ ثم أنشد شعراً فأجابه عمرو بن الأهتم بشعر تعرض به وبالحيريين ومن ذلك قوله :

ما فى بنى الأهتم من طائل ... يرجى ولا خير له يصلحون
قل لبنى الحيرى مخصوصة ... تظهر منهم بعض ما يكتمون
لولا دفاعى كنتمو أعبداً ... مسكنها الحيرة فالسيلحون
جاءت بكم عفرة من أرضها ... حميرية ليست كما تزعمون
فى ظاهر الكف وفى بطنها ... وسم من الداء الذى تكتمون[1]

وذكر أيضاً عدى بن حاتم قائلا : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يذكر ما رفع له من البلدان ، فذكر الحيرة فيما رفع له ، وكأن شرف قصورها أضراس الكلاب عرفت أن قد أريها وأنها ستفتح [2] .

وقال شويل محدثاً خالد بن الوليد : إنى سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يذكر فتح الحيرة . فسألته كرامة بنت عبد المسيح ، فقال : هى لك إذا فتحت الحيرة عنوة وشهد له بذلك [3] .

هذا ما جاء عن النبي محمد بن عبد الله فى ذكر الحيرة وفى الطموح إلى فتحها ، ولكن لم يتم من أمر ذلك شيء إلا بعد أن تولى الخلافة أبو بكر الصديق . وكان أول من غزا أرض العراق من المسلمين : المثنى بن حارثة الشيبانى ، والآخر سويد بن قطبة [4] العجلى ، فأقبلا حتى نزلا فيمن جمعا بتخوم أرض العجم ، فكانا يغيران على الدهاقين فيأخذان ما قدرا عليه ، فإذا طلبا أمعنا فى البر فلا يتبعهما أحد ، وكان المثنى يغير من ناحية الحيرة وسويد من ناحية الأبلة ، وذلك فى خلافة أبى بكر ، فكتب المثنى بن حارثة إلى أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ يعلمه ضراوته بفارس ويعرفه وهنهم ويسأله أن يمده بجيش ، فلما انتهى كتابه إلى أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد ، وقد كان فرغ من أهل الردة ـ أن يسير إلى الحيرة فيحارب فارس ويضم إليه المثنى ومن معه ، وكره المثنى ورود خالد عليه ، وكان

(١) الأغانى ١٢ : ١٥٠ (٢) الطبرى ٤ : ١٥ (٣) كذلك (٤) وجاء فى معجم البلدان فى المادة « نمار » أن أول من قدم أرض العراق لقتال أهل فارس حرملة بن مريطة وسلمى بن القين فنزلا أطد ونمار والجمرانة ، وكانا من المهاجرين ومن صالحى الصحابة .

ظن أن أبا بكر سيوليه الأمر ، فسار خالد فى سنة (١٢ هـ ٦٣٢ م) إلى العراق حتى نزل بباقيا [١] وباروسما [٢] وأليس [٣] ، وكان الذى صالحه عليها بصبهرى بن صلوبا ، وكتب خالد بن الوليد لهم كتاباً فيه « بسم الله الرحمن الرحيم : هـذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن بصبهرى ومنزله بشاطىء الفرات ، إنك آمن بأمان الله على حقن دمك فى إعطاء الجزية عن نفسك وجيرتك وأهل قريتك ـ باقيا وسميا ـ على ألف درهم جزية ، وقد قبلنا منك ورضى من معى من المسلمين بذلك ، فلك ذمة الله ، وذمة النبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذمة المسلمين على ذلك... شهد هشام بن الوليد ، وجرير بن عبد الله بن أبى عوف ، وسعيد ابن عمرو وكتب سنة ١٣ والسلام » . ويروى ذلك أنه كان سنة ١٢ [٤] .

ثم أقبل خالد بن الوليد حتى دنا من الحيرة فخرجت إليه خيول أزاذبة صاحب خيل كسرى التى كانت فى مسالح ما بينه وبين العرب فلقوهم بمجتمع الأنهار ، فتوجه إليهم المثنى بن حارثة فهزمهم الله ، ولما رأى ذلك أهل الحيرة خرجوا يستقبلونه ، فهم عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة وهانىء بن قبيصة ، فقال لهم خالد : إنى أدعوكم إلى الاسلام ، فان قبلتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا ، وإن أبيتم فالجزية ، وإن أبيتم فقد جئناكم بقوم يحبون الموت ، كما تحبون أنتم شرب الخمر ، فقالوا : لا حاجة لنا فى حربك ، فصالحهم على تسعين ومائة ألف درهم ، فكانت أول جزية حملت إلى المدينة من العراق ، وصالح خالد أهل الحيرة على أن يكونوا له عيوناً ففعلوا [٥] .

الظاهر أن هذا الصلح لم يدم طويلا ؛ لأن الحكومة المركزية الفارسية علمت بالأمر وجيشت الجيوش لمحاربة الفاتحين ، فانسحب خالد بن الوليد ، ولهذا نراه يحارب فى شهر صفر من السنة عينها فى الولجة وأليس وامغيشيا ، وبعد أن انتصر فى هذه المواقع سار إلى الحيرة

---

(١) ناحية من نواحى الكوفة وذكرها فى الفتوح (٢) قال ياقوت : باروسما ناحيتان من سواد بغداد ، ويقال لها باروسما الأعلى وباروسما الأسفل من كورة الأستان الأوسط (٣) أليس قرية من قرى الأنبار (٤) راجع معجم البلدان المادة «باقيا» ، وجاءت صورة هذه الرسالة فى الطبرى ٤ : ٣ بالنص الآتى : « بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد لابن صلوبا السوادى ومنزله بشاطىء الفرات ، إنك امن بأمان الله إذ حقن دمه إعطاء الجزية ، وقد أعطيت عن نفسك وعن أهل خرجك وجزيرتك ومن كان بقريتك ـ باقيا وباروسما ـ ألف درهم فقبلتها منك وشهد هشام بن الوليد » .

(٥) الطبرى ٤ ص ٣ — ٤ .

وحمل الرحال والأثقال فى السفن ، فخرج مرزبان الحيرة ،وهو الأزاذبة ، فعسكر عند الغريين، و أرسل ابنه فقطع الماء عن السفن ، فبقيت على الأرض،فسار خالد فى خيل نحو ابن الأزاذبة فلقيه على فرات بادقلى ، فضربه وقتله وقتل أصحابه ، وسار نحو الحيرة فهرب منه الأزاذبة ، وكان قد بلغه موت أردشير [١] وقتل ابنه فهرب بغير قتال ، ونزل المسلمون عند الغريين وتحصن أهل الحيرة فحصرهم فى قصورهم ، وكان ضرار بن الأزور محاصراً القصر الأبيض وفيه إياس بن قبيصة الطائى ، وكان ضرار بن الخطاب محاصراً قصر العدسيين وفيه عدى بن عدى المقتول ، وكان ضرار بن مقرن المزنى ـ عاشر عشرة إخوة له ـ محاصراً قصر بنى مازن ، وفيه ابن أكال ،وكان المثنى محاصراً قصر ابن بقيلة ، وفيه عمرو بن عبد المسيح فدعوهم جميعاً وأجلوهم يوماً فأبى أهل الحيرة ولجوا فناوشهم المسلمون ، فعهد خالد إلى أمرائه أن يبدءوا بالدعاء ، فإن قبلوا قبلوا منهم ،وإن أبوا أن يؤجلوهم يوماً ، وكان ضرار بن الأزور على قتال القصر الأبيض،فأصبحوا وهم مشرفون ، فدعاهم إلى إحدى ثلاث: الاسلام، أو الجزاء ، أو المنابذة ، فاختاروا المنابذة وتنادوا عليكم الخزازيف ، فقال ضرار : تنحوا لا ينالكم الرمى حتى ننظر فى الذى هتفوا به ، فلم يلبث أن امتلأ رأس القصر من رجال متعلق الخالى يرمون المسلمين بالخزازيف ـ وهى المداحى من الخزف ـ فقال ضرار : ارشقوهم فدنوا منهم فرشقوهم بالنبل فأعروا رءوس الحيطان،ثم بنوا عارتهم فيمن يليهم ، وصبح أمير كل قوم بمثل ذلك ففتحوا الدور والديارات وأكثروا القتل ، فنادى القسيسون والرهبان : يا أهل القصور ما يقتلنا غيركم ، فنادى أهل القصور : يا معشر العرب قد قبلنا واحدة من ثلاث فادعوا بنا وكفوا عنا حتى تبلغونا خالداً ، فخرج إياس بن قبيصة وأخوه إلى ضرار ابن الأزور ، وخرج عدى بن عدى وزيد بن عدى إلى ضرار بن الخطاب ، وخرج عمرو بن عبد المسيح وابن أكال هذا إلى ضرار بن مقرن ، وهذا إلى المثنى بن حارثة فأرسلوهم إلى خالد ، فخلا خالد بأهل كل قصر منهم دون الآخرين ، وبدأ بأصحاب عدى وقال : ويحكم ما أنتم عرب ، فما تنعمون من العرب أو العجم ، فما تنقمون من الانصاف والعدل ، فقال له عدى : بل عرب عاربة وأخرى متعربة ، فصالحوهم على مائة وتسعين ألفاً وتتابعوا على ذلك وأهدوا له هدايا [٢] .

[للبحث بقية] يوسف غنيمة

---

(١) ابن الأثير ٢ : ١٦٣ .

(٢) الطبرى ٤ : ١٢ .